القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

سفينة نوح

عبد الحميد جودة السحار

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أخذت مكتبة الطفل فى السنوات الأخيرة تنمو وتتسع ، وكان اعتمادها فى جملته على القصص ، وكان جل هذا القصص مترجمًا أو معربًا .

وفى القرآن الكريم قصص رائع جميل ، فلم لا يأخذ مكانه فى مكتبة الطفل ؟ ولم لا تنتفع هذه المكتبة بذلك التراث الجميل ؟

فكرنا فى هذا ، فأخرجنا هذه السلسلة ، ولقد راعينا فيها اعتبارين : الأول : أن تكون النصوص القرآنية هى المصدر الأول لما نكتب ، إذ كنا نعتقد أن للقرآن فى هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة . والثانى : أن نحقق السرد الفنى للقصص بما يربى فى الطفل الشعور الدينى ويقوى الحاسة الفنية وينمى الذوق الأدبى .

وهذه السلسلة ، بأجزائها الثمانية عشرة ، هى الحلقة الأولى ؛ وهناك حلقة ثانية وحلقة ثالثة وحلقة رابعة ؛ وأما الحلقة الثانية فهى خاصة بقصص السيرة ـ سيرة الرسول ﷺ . وظهرت فى أربعة وعشرين جزءا ؛ وأما الحلقة الثالثة فهى خاصة بالخلفاء الراشدين وظهرت فى عشرين جزءًا ، وأما الحلقة الرابعة فستعرض صور البطولات الإسلامية فى جميع العصور .

وإننا نتقدم بالشكر إلى حضرة قائد الفرقة الجوية محمد محمد فرج الذى اقترح علينا إخراج هذه الحلقة .

ونرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

١

كَثُرَ أبناء آدمَ وحوّاءَ فى الأرض ، وأولادُهم ، وأولادُ أولادِهم ؛ وأصبحوا شَعْبًا كبيرا . ومع مرور الزمن ، نَسِيَ الناسُ ربَّهُم الذى خلقَهم ؛ وصَنَعوا بأيديهم أصناما من الحجارة ، وسجدوا لها وعَبَدوها ؛ واعتقدوا أنَّ هذه الأصنامَ آلِهَةٌ تَنْفَعُهم وتَضُرُّهم !

عند ذلك أرسَلَ اللّه إليهم نوحًا ليُرشِدَهم إلى عبادة اللّه الواحِد الأحَد ، الذى خلَقهُم ، وخَلَق أباهم آدمَ وأمَّهم حواءَ من قبلِهم ؛ وخَلق لهم الأرضَ بكل ما فيها من حيوانٍ وماء ، ونباتٍ وأشجار ؛ وأعطاهُم العقلَ الذى يفكرون به ، والعَيْنَ التى يُبْصِرونَ بها ، والأذنَ التى يسمعونَ بها ، والفَمَ الذى يتكلّمون به ، والأنف الذى يشُمُّون به .

والأرجُلَ للمشى عليها ، والأيدى للعمل بها ، وخَلَق لهم الشَّمْسَ والقمرَ والنجوم ، وسائر الأشياء فى الأرضِ أو فى السماء .

ذَهَب نوحٌ إلى قَوْمِه ، فقال لهم :

يا قومى : إنكم صنعتُم هذه الأصنامَ بأيديكم ، وأصلُها حجارةٌ كما تعرفون ، ولكنكم تسجدون لها وتَعْبُدُونَها كأنَّها إلَهٌ حقيقى !

يا قومى : إنَّ اللَّه هو الذى خَلَقكم ، وهو الذى يُعطيكم الرزق ، لأنه هو الذى جَعَلكم قادرين على زراعَةِ الأرض ، وتربية الحيوان ، وصيد الأسماك ، وأرسل إليكم المَطَرَ من السماء ليتكوَّن منه الماء ، فآمِنُوا باللَّه وحدَه واعبُدوه ، واتركوا عِبادة هذه الأصْنام ، التى لا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ .

يا قَومِى : إنَّنى أنْصَحُكُم لوجه اللَّه ، ولا أطلبُ

منكم أجرًا على هذه النصيحة .

عند ذلك قال بعضُ الناس : واللّه هذا كلامٌ معقُول . إنَّ هذه الأصنامَ لا تتكَلَّمُ ولا تَتَحرَّك ، فكيف تكونُ آلهة ؟ إنَّ الإِلهَ لا يكونُ قطعةً من الحجر !

وقال البعضُ الآخر : لا لا . هذه آلهتنا ، ولا نتركها أبدا .

فأمَّا الذين صدَّقوا كلامَ نوح ، فكانوا من الفقراء الطيِّبين ، وقد انضَمُّوا إليه ، وتركوا عبادة الأصنام ، وَرَجَعوا إلى عبادةِ اللّه .

وأمَّا الأغنياءُ والمتكبِّرون ، فقالوا : مَن هو نوح حتى نَسْمَعَ كلامه ؟ إنّه رجلٌ مجنون ، فقير ، لا قيمة له ولن نسمع كلامَه أبدا .

* * *

وفى اليومِ التالى ، ذهبَ نوحٌ إلى هؤلاءِ الأغْنِياءِ المُتَكَبِّرينَ يدعوهُم إلى عبادةِ اللّه ، وتركِ عبادة الأصنام ، فقال له بعضهم :

ـ هَل جُنِنْتَ يا نوح ؟ ما هذا الكلامُ الفارغ الذى تقولُه ؟ لقد كنت من قبل عاقِلا ، ولم نسْمَعْ منك هذا الكَلام العَجيبَ إلا أمس ، فماذا جرى لك ؟

قال لهم نوح : يا قومى ، إنّنى لم أُجَن . ولكنَّ ربِّى أرسَلَنى إليكم لأرشِدَكم لأنَّكم تركتم عبادتَه ، وعبدتم الحجارةَ التى عَمِلَتها أيْديكم .

قال له واحدٌ منهم : ولماذا اختارَكَ اللّه من بَينِنا وأنتَ رجُلٌ فقير ، ولستَ أحْسَنَ منا حتى يختاركَ ويُرسِلك إلينا ؟

قال نوح : إذا كنتُ فقيرا ، فإنَّ قلبى طيِّبٌ ومخْلِصٌ للّه واللّه يُحبُّ الطيِّبين المخلصين . وإذا

سمِعْتُم كلامى فإنَّ اللّه يُحِبُّكم ويُدخِلُكم الجنَّة ، فهو الذى خَلَقَكم ، وهو الذى يُميتكم ، ثمَّ يبعَثُكم يوم القيامة مرة أخرى .

قال له أحدُهم : اسمَعْ يا نوح ؛ هل تريد أن نُصَدِّقكَ ، ونَتَّبعَك ؟ اطرُد هؤلاءِ الفُقَراءَ الذِين معك ، فإنّنا لا نُحِبُّ أن نجتمِع مع هؤلاءِ الفقراء ، ونحن أغنياءُ وأسْياد !

فردَّ نوح قائلا : وما ذَنْبُ هؤلاء الفقراء ! إنهم ناسٌ طيِّبون مُخلِصون . واللَّه يَحبُّ الطَّيبين المخلصين . وحرامٌ علىَّ أنْ أطْرُدَهُم من غَير ذَنب .

عندئذ قال له القوم : إذَنْ فاذْهَب بعِيدًا عنا ، ولا تُحاوِلْ مرةً أُخْرَى أن تكلّمنا .

ولكنْ نوحٌ لم ينقَطِعْ عن الذهابِ إليهم ، يوما بَعْدَ يوم ، لِيَنصَحَهُم ويُرشِدَهم . فقال لَهُم مرة :

- يا قومِي إنّى أخافُ عَلَيكُم غَضَبَ اللّه ، وَعَذابَ اللّه ، وأنا واحِدٌ منكم ، ومُشْفِقٌ عليكم .

وفى هذه المَرَّةِ لم يردُّوا عليْهِ أبدًا كأنَّهم لم يَسْمَعُوه ! قالَ لهم نوح : إن كنتم لا تحْتَرِمونَنى أنا ؛ لأنّى رجُلٌ فقير ، فاحترِموا ربَّكم الذى رزَقَكم بهذه الأموال ، وأعطاكم الأولادَ والصِّحةَ والقُوَّة .

عند ذلك غطّوا وجُوهَهُم بأطرافِ ثيابهم حتى لا يَرَوه ، وسدُّوا آذانَهم بأطراف أصابعهم حتى لا يسْمَعوه .

فدارَ نوح من حولهم ورفَعَ صَوته عاليا ، وهو يقول : يا قومى : إنّى أخافُ عليكُم عَذابَ يومٍ شديد ، فاسْمَعُوا وأَطِيعوا قبلَ أن يَنزِلَ عَلَيْكُم

غَضَبُ اللّه وَعَذابُه .

فلَمَّا تَضايَق القومُ مِنْهُ كَشَفُوا وجوهَهُم ، ونَظَروا إليه فى غَيظٍ وقالوا :

ــ يا نوح : لَقَد جادلتنا وهددتنا بالعذاب ، فاذهب وأْتِنا بالعذاب الشديد الّذى تُخَوِّفُنا به . وإذا عُدتَ إلينا فسنرْجُمُك بالحجارةِ حتى تموت .

ثم التَفَتَ بعضُهُم إلى بعض يقولون : لا تَترُكُوا عِبادَةَ آلِهَتِكم . لا تَتْركوا وَدًّا ولا سُواعا ، وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْرا .

ثُمَّ انصرَفُوا عَنْه وتركوه .

٢

رَجَعَ نوحٌ مُتَأَلِّمًا حَزينا . فرفَعَ وجهَهُ إلى اللّه يشكو له قومَه .

قال : ﴿ ربِّ إنى دعوتُ قَومِى لَيْلا ونَهارا ، فلَمْ

يَزِدْهُم دُعائِى إلاَّ فِرارا . وإنِّى كُلَّما دعَوْتُهم لِتَغْفِرَ لهم ، جَعلُوا أصابعَهم فى آذانِهم واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُم ، وأصَرُّوا واسْتَكْبَروا اسْتِكْبارا . ثم إنِّى دعَوْتُهم جِهارا ، ثمَّ إنِّى أعْلَنْتُ لهم وأسْرَرْتُ لهم إسْرارا . فقلتُ : استَغْفِروا ربَّكم إنه كان غفّارا ، يُرسِلِ السَّماءَ عليكُم مِدْرارا ، ويُمْدِدْكُم بأمْوالٍ وبنينَ ويجعل لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجُون لله وقارا ، وقد خلقكم أَطوارا ، أَلم تَرَوا كيف خلَقَ اللّه سبعَ سموات ٍ طِباقا ، وجَعَلَ القمرَ فيهنَّ نورا ، وجَعَلَ الشمسَ سِراجا ، واللّه أَنْبَتَكم من الأَرضِ نباتا ، ثمَّ يُعيدُكم فيها ويُخرجُكم إخراجا ، واللّه جعلَ لكم الأرضَ بِساطا ، لِتَسْلُكوا منها سُبُلاً فِجاجا ﴾ .

قال نوحٌ : ﴿ ربِّ إنهم عَصَونى واتَّبعوا مَنْ لم يَزِدْه مالُه وولَدُه إلا خَسارا ، ومَكَروا مَكْرًا كُبَّارا . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتكُم ، ولا تذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعا ، ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسرا ، وقَد أضَلُّوا كثيرًا ولا تَزِدِ الظالمين إلا ضلالا .. ﴾ .

وقال نوح : ﴿ ربِّ ، لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّارا . إنك إنْ تذَرْهُم يُضِلُّوا عِبادَك ، ولا يلدوا إلا فاجِرا كَفَّارا ، ربِّ اغفرْ لى ولِوالِدىَّ ولِمَن دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنا ، وللمؤمنينَ والمؤمِناتِ ، ولا تَزِدِ الظالمين إلا تَبَارا ﴾ .

عند ذلك استجابَ اللَّه دعاءه ، وقال له : يا نوح ، لا تتألَّمْ ولا تَحْزَنْ مما وقع لك من الإهانات ؛ فإننى سأُغرِقُ الكُفَّارَ جميعا ، ولن يَنجوَ إلا أنت وأهلُكَ والمؤمنون معك .

وأمـره اللّـه أن يَصْنَـعَ سـفينةً عظيمـة جـدًّا ، وأنْ ينتظرَ حتى يُخبِرَهُ عمَّا يَصنعُ بها ، ولما كـان نـوح لا يعرفُ كيفَ يصنعُ السفينة ، فقـد علّمـه اللّـه كيـفَ يصنعُها .

وذهب نوحٌ إلى الغابـة ، وأخـذ يقطـعُ الأشـجار ، ويشُقُّها ألواحا ، وينظفها ، ويقطعها ، ويُركِّبُها .

وبينما هو يعمـل فى السـفينة ، كـان الكفـار من قومه يمرون عليه ، فيضحكون ، ويقولون :

يا نوح : مالَك تركْتَ الكلامَ الغريبَ الذى كُنـتَ تقُولُه لَنا ، ورُحـتَ تصنـع المراكِـب ؟ هـل رأيـتَ أنَّ النِّجارةَ أكْسَبُ من الرِّسالة ؟

فيقول لهم : انتظرُوا وستعرِفون !

فيضحكون عليه ويصيحون : مجنـون ! ألَمْ نقُلْ لكم إنَّه مجنون ؟ يوما يقول : إنَّه نبى ، ويوما يشتغل نجارا .

٣

لما فَرَغَ نوح من عملِ السفينة ، أمرهُ اللّه أن يضعَ فيها زوجًا من كلّ نوع من أنواعِ الحيوانِ والطيورِ والزّواحِفِ والحشرات ، ثمّ يدخُلُ فيها هو وأهْلُه والذين آمنوا معه . لأنّ اللّه سيُرْسِلُ طُوفانًا عظيما يُغْرِقُ الأرض . فلا ينجو إلا من كان فى السفينة .

وراح نوحٌ يجمعُ زوجًا من كل نوع من أنواعِ الحيوان : ذكرًا وأنثى ـ من الجمالِ والخيلِ والبقرِ والغنمِ والماعزِ والأسودِ والنمورِ والذئابِ والضباعِ والثعالبِ . ومن الأفيالِ والزرافِ والغزلانِ والقرود . وزوجًا من كل نوع من أنواعِ الطيور : ذكرا وأنثى ، من الدّجاجِ والحمامِ ، والبطِّ والإوز ، والدّيكةِ والفراخِ الروميةِ واليمامِ والعصافير ، ومن

الغربانِ والبومِ والنسورِ والصقور . وزوجا من كلِّ نوع من أنواع الزّواحف : ذكرًا وأنثى : من السلاحِف والثعابين والسحالى والأبراص . وزوجا من كلِّ نوعٍ من أنواع الحشرات : ذكرا وأنثى ، من العناكبِ والعقاربِ والخنافسِ والصراصير .. إلى غير ذلك من كلِّ الأحياء التى على ظهرِ الأرض . جَعَلَ لكلٍّ منها بيوتًا فى السفينة .

وخَزَّن نوح فى السفينة مقاديرَ كبيرةً من طَعامِ الحيوانِ والطَّيرِ والزَّواحِف ، ومن الماء الحُلو . كما أخذَ معه أصنافا من جميع الحبوبِ وبذورِ الأشجارِ التى تنْبُت فى الأرض .

وفى آخر يومٍ دخل نوحٌ وأهلُه والمؤمنون معه - إلا امرأتَه فقد كانت كافرة - وأقفلوا أبواب السفينةِ ونوافِذَها ، كما أمَرهُ اللّه سبحانه وتعالى .

وعند ذلك هبَّتْ زوابعُ وعواصِفُ شديدة ، وأظْلَمت السماء ، وبَرَقَ البرْقُ ورعد الرَّعد . وتدفّقت الأمطارُ الغزيرةُ من السماء ، وتفَجَّرَت عيونُ الماءِ من الأرضِ . وصارَ الجوُّ مُخيفا فظيعا .

وارتَفَعَ الماءُ شيئا فشيئا على وجه الأرض ، حتى عامَت السفينة . ثمَّ أخذَ الماءُ يغْمر الأشجارَ والبيوت ، فهربَ الكفارُ منها ، وراحوا يجرون إلى الجبال لتُنَجِّيَهم من الماء .

وفى هذا الوقتِ نظرَ نوح من إحدى النوافِذ العاليةِ فى السفينة ، فرأى واحدًا من أولاده يجرى نحو قِمَّةِ جبل . وكان هذا الولد لم يؤمن ، فغافَل والده وهرَبَ من السفينة قبل أن يُغْلِقها نوح .

زعق نوح بأعلى صوته : ﴿ يا بُنَىَّ اركبْ معنا ولا تكن مع الكافِرين ﴾ .

قال : ﴿ سآوى إلى جَبَلٍ يَعصِمُنى من الماء ﴾ .

فزعَق نوحٌ مرَّةً أخرى وقلبُه يدق :

قال : ﴿ لا عاصِمَ اليوم من أمرِ اللّه إلا مَن رَحِم ﴾ .

وفى هذه اللحظَةِ ارتفعَت موجةٌ عالية ، فَقَلَبت الشابَّ وجرَفَتْه مع التيار ، واختفى عن نَظَرِ والده وغاب .

وسارت السفينة بين أمواج عالية ، كأنها الجبالُ الضخمة ، يومًا بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة ، والطوفانُ يرتفع ويرتفع ، ويغمر المرتفعاتِ والجبال ، حتى لم يبقَ شيء ظاهرًا على وجه الأرض ، ومات الناسُ والحيوانُ والطيرُ وسائر الأحياء ، إلا الذين فى السفينة مع نوح .

عند ذلك قال اللّه : ﴿ يا أرضُ ابلعى ماءك ، ويا سماءُ أقْلِعى ﴾ - أى كُفِّى واسكتى - فسكت المطر

والبرق والرعد وطلعت الشمس ، وابتلعت الأرض ما عليها من الماء . وكانت السفينة قد رسَت على جبل « الجودىّ » ولكنها كانت مغلَقةَ النوافذ والأبواب ، وكل ما فيها ظلامٌ فى ظلام .

أحسَّ نوح أنَّ السفينةَ راسيةٌ لا تتحرك ، ففتح نافذة ليرى ماذا تمّ فى الدنيا . فدخل شعاعٌ من أشعَّةِ الشمس فيها . وكان قد مضَى على مَنْ فيها زمنٌ طويلٌ وهم لا يرون شيئا ، فهاصوا وزاطوا وزأر الأسد ، وصرخ النمر ، وعوى الذئب ، ونبَح الكلب ، وماءَ القط ، ورَغا الجمل ، وثغا الخروف ، وصهل الحصان ، ونهق الحمار ، وصاح الديك ، ونَعَق الغراب ، ونَعَبَت البومة ، ورجَّع الحمام ، وشقشق العصفور .

واختلطت الأصواتُ كلُّها بأَصواتِ الناس ، وهم

يقولـون : الحمـد لله الـذى نجّانـا . الحمـد لله الـذى نجّانا . افتح يا نوح ، افتح يا نوح .

ولكن نوح قال لهم : اصبِروا وتمهّلوا ، وانتظروا حتى نعرفَ ماذا تم فى الأَرضِ قبل أن نهبِطَ إليها .

٤

عندما عَرَف نوحٌ أنَّ الأَرضَ قَدْ جَفَّت ، فتح أبواب السَّفينة ، وأخَذَ يُطْلِقُ السِّباعَ المفترِسَةَ والطيورَ الجَارِحةَ أوّلا ، حتى إذا ابتَعَدَت عن المكَانِ أطلَقَ البهائمَ الأليفةَ والطيورَ الداجنة ، ثمَّ خرَجَ هوَ وأولادُه وأهلُه والذينَ آمنوا معه .

وجَلس نوحٌ بين أهلِه وأبنائِه ، فرأى مكانَ ابنه الشَّابِّ خاليا ، فدمعت عيناه ، وحَزَنَ قَلْبه ، وتوجَّه إلى اللَّه يدعوه .

قال : ﴿ ربِّ إنَّ ابنى من أَهْلى ﴾ وقدْ وَعَدْتَنى أن تُنجِى معِى أهلى جميعا .

يا رب رُدَّ علىَّ ولدى ، يا رب إنّكَ أحكَمُ الحاكمين .

قال له اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ يا نوحُ إنّه ليس من أهلِك ، إنّه عمَلٌ غيرُ صالِح ﴾ ، فعرفَ نوح أنه أخطأ ، لأنَّ ابنه هذا كافرٌ ليس ولده ، ولا يستحق أن يطلُبَ من اللّه إحياءه .

وخافَ نوحٌ أن يكونَ اللّه غاضبا عليه ، لأَنه طلب منه أن يُحْيِىَ له ذلك الولد الكافر ، فدعا ربَّه أن يغفِرَ له ويعفو عنه ، لأنه لم يكن يعرِف أن الولد الكافر لا يكون من أقربائِه .

وسمِعَ اللّه دعاءَه ، فَرَضِىَ عنه ، وقال له : عِشْ أنت وذُرِّيَّتُكَ فى الأرض ، وازرعوها وعَمِّروها .

فقام نوحٌ ومن معه يبذرون الحبوب ، ويَغْرِسُون البذور ، ويبنونَ البيوت ، حتى عادت الأَرْضُ عمارًا بعد الطُّوفان .